



مقومات التكليف - اللقاء الأول

المحاضرات

محاضرة في الأردن

2021-11-29

عمان

الأردن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيِّنا الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، اللهم علِّمنا ما نَنْفَعُنَا، وانْقِصنا بما عَلَّمْنَا وزِدنا عِلْماً وَعَمَلًا مُتَقَبَّلاً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وبعد.

الإنسان هو الوحيد الذي قيل حمل الأمانة:

أحبابنا الكرام، رجل تاجر، عنده أربعة أولاد طبيعة عمله، تقتضي أنَّ واحداً من هؤلاء على الأقل يجب أن يأخذ شهادة عُليا من بلد مُتَقَدِّم لِبَتَايَع العمل في المُنْشَأَة التي هو فيها، فَجَمَعَ الأولاد الأربعة وقال لهم: أنوي أن أُرْسِلَ أحداًكم إلى فرنسا لإحضار شهادة عُليا في هذا المجال، فمن منكم يَحْمِلُ هذه الأمانة ليتابع المعمل من بعدي ويستلم الأمور وأقَرُّهُ لهذا الأمر ولا أريد منه شيئاً؟ من منكم يَحْمِلُ الأمانة؟ الولد الأول قال: يا أبي أنا لا أجد نفسي هناك، أنا أعرف نفسي، لا أستطيع حَمْلَ هذه الأمانة، الدراسة صعبة جداً وأنا بالكاد أنهيت الثانوية، لا أريد متابعة الدراسة، قال له: كما تريد يا بني، الثاني قال له: وأنا يا أبي أشفق من حَمْلِ هذه الأمانة، أنا خائف من الموضوع، لا أدري إن كانت إمكانياتي تَسْمَحُ أم لا تَسْمَحُ، اعذرني، والثالث قال مثل قول الثاني والأول، الرابع قال: يا أبي أنا لها، أرسلني وأنا لها، أحملُ هذه الأمانة بصدق وأعود بعد خمس سنوات ومعني شهادة عُليا، وأسرُّ قلبك وخاطرك بها.

الآن الأب حَمَلَ الأمانة لِمَنْ قِيلَ الحَمْلُ، قال له: ماذا تريد؟ قال: أريد راتباً شهرياً، حاضر، أريد تذاكر سفر كي أعود كل صيف وأزوركم، حاضر، أريد سيارة في تلك البلاد لأن المواصلات صعبة، حاضر، أريد دورات في تعلم الفرنسية لأنني ضعيف حتى أقوي مُحَادَثَتِي، حاضر، أعطاه ما يُريد، مما يُعِيْثُهُ على أداء المُهِمَّةِ، ربنا جلَّ جلاله يقول في قرآنه الكريم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا (72)

[سورة الأحزاب]



السموات والأرض تعبير قرآني عن الكون

السموات قالت: يا رب نحن كسنا أهلاً لهذه الأمانة، لا نستطيع، الأرض كلها بما فيها: لا نريد حَمَلَ هذه الأمانة، والسموات والأرض في القرآن تعبير قرآني عن الكون يَكُلُّ ما فيه، سوى الله، كل شيء السموات والأرض والجبال تعبير عن القوة، الجبال قوية جداً، نحن ننظر فنقول: فلان راسخ كالجبل، ما شاء الله! أي نضرب المثل في ثبات الجبل، ومع ذلك الجبال أشَقَقْنَ منها، لا نريد، وحَمَلَهَا الإنسان، الإنسان قال: يا رب أنا لها، أنا أَحَمَلُهَا.

الآن سيسألني سائل: متى حدث ذلك لا نذكره؟ طبعاً لن نذكره لأنه لم يكن هناك ذاكرة لتذكره، عندما غُرِضَتِ الأمانة لم يكن هناك ذاكرة، أي حاسوب بلا ذاكرة، بلا رام، لم يكن هناك تسجيل، فالمعلومة لم تُخَزَّنْ أصلاً، لا تستطيع استرجاعها الآن، لأنها غير موجودة، الإنسان إذا فَقَدَ ذاكرته وقلت له: ماذا درست في سنة 2003؟ هو فاقِدُ الذاكرة فكيف يجب إن لم يوجد ذاكرة في الأصل؟! لا تستطيع أن تتذكر حَدَثًا كان قبل أن تنتقل إلى عالم الصُّور الذي فيه ذاكرة، والذاكرة في الدماغ بحجم حَبَّةِ العدس تُخَزِّن ملايين الصُّور والأفكار، و تُخَزِّن المعلومات وما إلى ذلك.

كُنَّا في عالم الدَّر كما تُسمِّيهِ، أي عالم بعيد عن الصورة، لا يوجد صور، لا يوجد جبل ولا سماء ولا أرض، لكن الإنسان حَمَلَ الأمانة، كيف أثِقُ بذلك؟ لأن الله تعالى يخبرني ومن أَصَدِّقُ من الله حديثاً، فانا أَصَدِّقُ بالغيب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

[سورة البقرة]

فانا أَصَدِّقُ بالغيب، لأن الله تعالى أخبرني بأنه عَرَضَ الأمانة وبأن الإنسان قِيلَ حَمَلَ الأمانة، فانا قِيلَت.

النفس هي الأمانة التي قيل للإنسان حملها:

ما هو حَمَلُ الأمانة يَمُتِلُ الرجل التاجر؟ الأمانة كانت أن يُسافر وأن يأتي بشهادة.



الأمانة هي نفسك التي بين يديك

ما الأمانة التي حَمَلْنَاهَا؟ الأمانة هي نفسك التي بين يديك، أن تُزَكِّيها، أن تحمّلها على طاعة الله، أن تُنْقِيها من الأدران والأمراض، أن تُطِيعَ الله فيما أمر، أن تنتهي عما تهى عنه وَزَجَرَ، أن تُحْسِنَ للناس، أن تَعْمَرَ الأرض بالخير.

الأمانة أَتُكَلِّفُكَ، كَلَّفَكَ، السماء والأرض والجبال غير مُكَلَّفَةٍ، أي لا يوجد يوم القيامة حساب، لن يوقف الله جبلاً يقول له: أحسنت، وجبلاً يقول له: أسأت، أما الإنسان فسَيَحِيلُ إِسَاءَتَهُ وَسَيَحْمِلُ إِحْسَانَهُ، سَيُجَارَى بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وبالإساءة حيناً عَفْوَاً وَغُفْرَانًا، نَسأل الله العفو والعافية، وحيناً عَقُوبَةً وَنَدْمًا وَخُسْرَانًا، حسب الإساءة.

إذا نحن حَمَلْنَا الأمانة، ولا نستطيع تذكُّر هذا الحَدَثِ العظيم لأننا وقتها لم نكن تَمِلُكَ الذاكرة أصلاً، فلا نذكر.

تكليف كل إنسان وفق وسعه:

الآن ربنا عز وجل عندما حَمَّلَنَا الأمانة وكَلَّفَنَا إعطائنا التَّكليف، قال تعالى في آيتين مُهِمَّتين جداً في هذا الموضوع، الآية الأولى قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ بَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ
عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)

[سورة البقرة]

والثانية قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُؤْتِيكَ دُو سَعَةٍ مِنْ سَعَيْهِ ۚ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا
(7)

[سورة الطلاق]



كل إنسان مُكَلَّفٌ ضمن الوسع

فكل إنسان مُكَلَّفٌ ضمن الوسع، وضمن ما أعطاه الله، فمثلاً الذي آتاه الله تعالى بيته صالحة، وأباً، وأمّاً، أعطوه من الثَّرية الشيء الكبير، حسابه لن يكون كشخص لم يأخذ حَظَّهُ من الرعاية الأبوية فرضاً، الذي آتاه الله تعالى أنه يعيش في بلاد المسلمين ويَسْمَعُ كل يوم الأذان خمس مرات لن يكون حسابه كشخص آخر لا يُنْعَمُ بهذه الميزة، لكن الجميع سيخاسب قطعاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقِفُّهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24)

[سورة الصافات]

لكن تَقِفُ يعِدُ الله، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا)، وهذا تعليم لنا، أي إذا كنت مُرْتَبِّياً في موضع تُرَبِّي به طلاباً أو أولاداً فاحرص على هذين الأمرين دائماً.

أولاً لا تُكَلِّفُ إلا ضمن الوسع، لا تَطْلُبُ من ابنك شيئاً فوق وُسْعِهِ، اطْلُبِ الوسع، إذا أردت أن تُطَاعَ فمُرْ بالمُسْتَطَاع، ثم لا تُحاسبه على شيءٍ لم تُعْطِهِ مُقَوِّماتِهِ، أحياناً الزوج يُحاسب زوجته على شيء يقول له: أنت لم تُحضر لي كذا وكذا، ملياً أحضرت، فانا ما استطعتُ، لماذا لم تطبخي اليوم؟ لأنك لم تأت بالمواد الأولية، أنت خرجت من البيت وما جئت بالكوسا والأرز فكيف أطبخ الكوسا؟ أي أنت عندما تريد أن تُكَلِّفَ ينبغي أن تُعْطِيَ من كَلَفَتَهُ الشيء الذي يُعِينُهُ على أداء المُهِمَّةِ التي كَلَفْتَهُ بها.

مهمة الإنسان أن يوقع حركته في الحياة ضمن المنهج الإلهي:



الإحسان للناس عبادة

الآن ربنا جل جلاله كلفنا، قال لنا: أنتم مُكَلَّفون بعبادتي، بالعبادة بمفهومها العام الذي تحدّثنا عنه كثيراً، وهو كل عمل ضمن المنهج الإلهي وليس العبادة الشعائرية فحسب، كل عمل ضمن المنهج الإلهي، أي التزّهة مع الأهل من غير معصية عبادة، وأن يأتي الرجل أهله بالحلال عبادة، وأن يلعب لعبة كرة قدم مع رفاقه مع ستر العورة والإحسان للناس عبادة، وهكذا، فمهموم العبادة كل نشاط يأتي ضمن منهج الله.

مهندس، طبيب، تاجر، كل إنسان في عبادة وهو في عمله، في بيته، مع أهله، فلما كلفك بأن تُسبّر حياتك وفق المنهج الإلهي، أن توقع حركتك في الحياة وفق المنهج على السكّة، السكّة حلال وحرام، يوجد سبكة، كلفك بالعبادة أي أن توقع الحركة ضمن السكّة، وليس خارجها، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ (86)

[سورة هود]

ما معنى (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)؟ أي بالأموال يوجد ربا، وعش، ويوجد تدليس وتجنس، ويوجد بيع حلال: (بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ) البيع الحلال من غير الربا والعش.

بالنسبة بقية الله هي زوجتك، بالغلو في الأرض بقية الله هي طلب العلم، تعلو في الأرض بعلمك، لا تعلو في الأرض بالتجتر على عباد الله، فكل شيء فيه بقية، ما أبقاء الله لك ضمن الحلال، مهمتك أن توقع حركتك في الحياة ضمن المنهج الإلهي.

ما الذي أعطانا الله تعالى إياه من أجل أن نوقع حركتنا في الحياة ضمن المنهج؟ عندما قال الابن لأبيه: أنا لها يا أبت، هذا الابن الرابع، قال: أنا لها، هل تركه؟ لم يتركه، بل أعطاه كل ما يحتاجه، لكن الآن الابن الرابع هذا الذي قال: أنا لها، يوجد أمامه خياران، الخيار الأول: أن يتخذ المهمة وأن يحمل الأمانة كما ينبغي، وعندها سيكون في أعلى المراتب، سيعود لأبيه بعد سنوات وقد جاء بالشهادة العليا، وشيقام له حفل تكريم، وستدّر عليه بعد ذلك العمل أرباحاً كبيرة، وسيكون في مكان محترم في المجتمع إلى آخره.

وقد يغفل عن الأمانة، ويذهب إلى تلك البلاد فينظر في متعتها، فيترك الدراسة ويذهب إلى الحانات والعباد بالله، إلى المقاصف، إلى المتنزهات، ينقصي العام الدراسي وقد رتب، يعود إلى والديه ولم يحمل الشهادة، فيجاسب جساباً عسيراً على ما قدّم، هنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)

[سورة الأحزاب]

ظلم: لأنه ظلم نفسه فحمل أمانة لا يستطيعها، وجهول: لأنه جهل حجم الأمانة، طمّ الموضوع سهلاً.

أنا أذهب إلى الجنة، ولكنه لم يكن لديه القدرة، فهنا كان ظلوماً جهولاً، لكن إن حمل الأمانة بحق وانتقل من الإنسان إلى المؤمن، قال: (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) بشكل عام أمّا المؤمن فيحملها حقّ حملها، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْإِبْرَةِ الَّتِي لَا يَحْمِلُهَا أَشْفَارًا ۖ يَسْئَلُ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ



التوراة منهج من الله

(حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا) أي حُمِّلُوا أمانة المنهج، التوراة منهج من الله، حُمِّلُوا الأمانة ثم لم يحملوها، أي لم يُعطوها حقها، لماذا مَنَلَهُمُ الله تعالى قال: (كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَتَحْمِلُ أَسْفَارًا) جِيءَ - أَجْلَكُمُ اللهُ - بِجَمَارٍ، وضع فوقه كتاباً مُهماً، أحدثُ نظرية في الفيزياء النووية، ماذا يتعلم الجمار من الكتاب؟ لا شيء، يبقى على وضعه، لو وضعت الكتاب على ظهره مئة سنة يبقى حماراً أَجْلَكُمُ اللهُ، لا يتعلم.

فقال: (كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَتَحْمِلُ أَسْفَارًا) يحمل كُتُباً على ظهره ولا يفهم شيئاً، فالإنسان عندما يقول أحملُ الأمانة ثم لا يحملها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَبِيلٍ (44)

[سورة الفرقان]

(أَصْلُ سَبِيلٍ) لأن الأنعام لم تحمل أصلاً الأمانة، أمّا هو فحملها ثم لم يحملها، حَمَلَهَا فَأَخَذَ الْوِزْرَ دون أن يأخذ الأجر، فكيف حاله؟ فهنا الابن عندما قال: أنا لها، أعطاه الأب ما يحتاجه، ماذا تريد يا أبت؟ قال له: أريد بيتاً، وسيارة، وراتباً شهرياً، ولغة، ومصاريف، أعطيك وأنت تُحَقِّقُ الأمانة.

مقومات التكليف:

1 - الكون:

الإنسان عندما حَمَلَ الأمانة أُعْطِيَ أشياء لم تُعْطَ للمخلوقات الأخرى، أول ما أعطاه الله تعالى الكون، سَخَّرَ الكونَ كُلَّهُ لأجله، كل الكون، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

[سورة الجاثية]



كل ما سُخِّر لك هو دونك

كل شيء، الخروف مُسَخَّر لك، والعشب مُسَخَّر لك، والشمس مُسَخَّرة لك، والقمر مُسَخَّر لك، والمُسَخَّر له أعظم من كل المُسَخَّرَات، أنت الآن تجلس على الكرسي، إني مُسَخَّر للكرسي أم الكرسي مُسَخَّر لك؟ الكرسي مُسَخَّر لك، أنت أهم أم الكرسي؟ أنت. فكل ما سُخِّر لك هو دونك، فالله تعالى (سَخَّر لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ) فأنت أكثرم عنده من كل شيء، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)

[سورة الإسراء]

فأنت لك الأفضليَّة لأن كل شيء مُسَخَّر لك، فلمَّا تأتي بالخروف وتذبحه وتأكله فهو مُسَخَّر لك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۚ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَتَاعٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (5)

[سورة النحل]

لكم، البقرة تحمِل كميات كبيرة من الحليب، لا يحتاج وليدُها إلا واحداً من خمسة من الحليب، والباقي لمن؟ لك، حتى تشرب الحليب صباحاً وتُشربُه لأبنائك، فهي مُسَخَّرة لك، حتى وليدُها الذي يشرب الحليب لك، من أجل أن يكبر ويكون لحمُه لك، وحليبه لك.



كل شيء في الكون يدلك على الله

إذا كل شيء في الكون مُسَخَّر للإنسان، فهذا أول ما أعطاك الله تعالى، الكون بكل ما فيه لك، قال لك: انظر في الكون كل شيء يدلك عليه، كل شيء في هذا الكون المُسَخَّر لك يدلك عليه، انظر إلى الشمس تهتد إلى الله، إلى القمر تهتد إلى الله، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، كل شيء يدل على الله.

إن وضعت يدك على شعرك، في رأس كل إنسان، لكن ليس رأسي لأنه ابتداء الصلع، في رأس كل إنسان في وضعه الطبيعي ثلاثمائة ألف شعرة، كل شعرة من هذه الشعرات يُمدّها الله تعالى، كل شعرة القوم يُمدّها من أجلك، لها غدة دهنية وغدة صبيغة. الدهنية؛ يقول: شعري رُبّت، إذا لم يستحجم لعدة أيام، شعري رُبّت، هذه الغدة الدهنية، الصبيغة؛ اللون، كل شعرة لها عضلة وعصب.

العضلة؛ يقول: وقف شعري بدني، قف شعري رأسي، بالفصحى: قف شعري رأسي، من الخوف أو من البرد قف، وقف، قشعر بدني، فوقوف الشعر دليل أن لكل شعرة عضلة، العضلة تُحرّكها، وكل شعرة لها عصب، لكن عصب حركة وليس عصب جس، لو كان عصب إحساس كان يحتاج إلى مستشفى للجري العمليات الجراحية التي هي قص الشعر لكيلا يتألم، لكن جعل له العصب عصب حركة فقط، وليس أعصاب جس، مثل الأطراف، فينمو الشعر لكن لا تُجسّ بالأم إذا قصصت الشعر، فلكل شعرة غدة دهنية، غدة صبيغة، عضلة، عصب، ولها وريد وبشريان، أي خط توصيل، إمداد. فتَحَيَّل هذا على مستوى الشعر، لو ذهب الإنسان إلى الكليتين وإلى الكبد، وإلى جهاز الدوران وجهاز الإطراح.

أي كل شيء مُسَخَّر من أجلك، جعله الله تعالى لك، لخدمتك، هذا الكون بكل ما فيه ينطبق بوجود الله وبوحدانيته وبكماله، أي شيء في الوجود يقول لك ثلاث كلمات: الله موجود، لأن وجودك يدل على وجوده، ويقول لك: الله واحد لا شريك له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22)

[سورة الأنبياء]

ويقول لك: الله كامل كمالاً مطلقاً لأن كل شيء خلقه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

[سور التين]

فُعطيك وجوداً ووحدانية وكمالاً، كل شيء في الكون ينطبق بوجود الله وبوحدانيته وبكماله.

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف وتسخير تشريف:

الكون بكل ما فيه مُسَخَّر للإنسان تسخير تعريف وتسخير تشريف.



رَبُّ فَعَلْنَا عَلَى تَسْخِيرِ التَّشْرِيفِ أَنْ تَشْكُرَ

رَبُّ فَعَلْنَا عَلَى تَسْخِيرِ التَّعْرِيفِ أَنْ تُؤْمِنَ، وَرَبُّ فَعَلْنَا عَلَى تَسْخِيرِ التَّشْرِيفِ أَنْ تَشْكُرَ، أَنْتَ إِذَا أَمْسَكَتَ تُفَاحَةً، هَذِهِ التُّفَاحَةُ بِقَوَائِمِهَا، بِحَجْمِهَا، بِطَعْمِهَا الْحَلْوِ، بِغُلَافِهَا الْأَبْيَقِ، بِحِمَالِ مَنَظَرِهَا، بِطَبِيبِ طَعْمِهَا، بِرَائِحَتِهَا الْجَمِيلَةِ، تَذُكُّكَ عَلَى خَالِقِهَا، تَقُولُ: سُبْحَانَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ! إِذَا مَضَعْتَهَا وَأَكَلْتَهَا وَشَعُرْتَ بِإِكْرَامِ اللَّهِ لَكَ تَقُولُ: يَا رَبُّ لَكَ الْحَمْدُ، هُنَا تَكُونُ قَدْ حَقَّقْتَ الْهَدَفَ مِنْ خَلْقِ التُّفَاحِ، أُمُورُكَ سَلِيمَةٌ.

البعيد عن الله عز وجل يَتَفَقَّحُ فَلَا يَشْكُرُ، وَيَنْظُرُ فَلَا يَعْتَبِرُ، التَّفَاحَةُ أَمَامَهُ وَلَا تَذُكُّهُ عَلَى اللَّهِ، وَيَأْكُلُ وَلَا يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَمَا اسْتِفَادَ مِنَ التَّفَاحَةِ أَبَدًا، لِأَنَّهُ اسْتِفَادَ فَقَطْ مِنْ فَائِدَةِ تَفَعُّلِهِ تَنْتَهِيَ بِالْمَوْتِ فَقَطْ، أَكُلْتَ تَكَارَ، أَوْ أَكْبَلْتَ تَكْبَرُ.

إذاً كل شيء في الكون مُسَخَّر تسخير تعريف وتسخير تشريف، إذا نظرت في التعريف تتعرّف إلى الله من خلال الأشياء، وفي التشريف تشكّر الله تعالى، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

[سورة النساء]

هذا الكون هو أول ما أعطاك الله سخره لك، ألم تقبل حمل الأمانة؟ ألم تقل: أنا لها؟ وهذا الكون هدية مني لك، انتفع به واشكر الله عليه، نعرف إلى الله من خلاله. الحيوانات أجلكم الله مهما تطرث في الكون لا تستطيع أن تجري محاكمة، لكن أحياناً والعباد بالله تكون بعض الكائنات الحيّة يشكرها لله أعظم من الإنسان في شكره لله، فيهيّط الإنسان عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به. إذاً أيها الكرام، المَقُومُ الأول، أو أول ما أعطاك الله تعالى من الأمور هو: الكون.

2 - العقل:



العقل عملية تتم في القلب

الأمر الثاني: هو القوة الإدراكية التي يُسميها الكثيرون العقل، الإدراك، الاستدلال، الاستنباط، الاستنتاج، التفكير، التدبّر، المحاكمة. هذه كلها فروع عن قوّة إدراكيّة أودعها الله في الإنسان، اصطليح على تسميتها العقل، أي عمليّة القهم، لأن العقل كما قُلت سابقاً ليس جهازاً مُستقلاً في الإنسان، يقول لك: أين العين؟ هذه العين، أين الدماغ؟ ها هو، الرأس؟ ها هو؟ اليد؟ ها هي، أين العقل؟ العقل عملية تتم في القلب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَلِّمْ تَسْبِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ۖ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

[سورة الحج]

يعقل الإنسان الأشياء، يفهمها، يدركها من خلال هذه القوة التي أودعها الله في الإنسان، ما أعطى الكائنات الأخرى ما يُشابهها، لكن أعطاهم دونها بكثير، تُسمّى الغريزة، أي أنت إذا كنت تمشي في سيارتك وهناك قطعة تعبّر الطريق، وأخشت بالخطر ترجع فوراً، تهرب، هذا إدراك، لو ما أدركت تتابع، أدركت أن هناك خطراً إن استمررت في عبور الشارع فزجّعت، هذه تُحافظ بها على نفسها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ إِلَى التَّحْلِ

هذا وحي الغريزة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68)

[سورة النحل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ قَمْرٌ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

[سورة طه]

الطيور تُهاجر وتعود، عندها إدراك؟ لا نقول: الكائنات الأخرى لا تملك إدراكاً، لكن ليس هذا الإدراك الذي يحول على الاستنباط والاستنتاج والاختراع والتطوير والاستدلال بشيء على شيء، هذا كله من هبة الله تعالى على الإنسان.

قوانين العقل:

أعظم ما في هذه القوة الإدراكية التي تُسمّى اصطلاحاً: العقل، أعظم ما فيها كما يقول علماء المنطق ثلاثة قوانين: القانون الأول يُسمّونه: مبدأ السببية، أي إدراك الإنسان لا يستطيع أو عقل الإنسان لا يستطيع أن يدرك شيئاً إلا أن يعرف كيف حصل، من أين، يسالك عن السبب، هذا مبدأ السببية.



مبدأ السببية يقتضي أن هناك سبباً لكل شيء

سافرت مع أهل بيتك إلى العقبة ثلاثة أيام، وتأكدت بنفسك بأن جميع الأنوار مُطفاة، وأغلقت الباب وسافرت، رجعت بعد ثلاثة أيام، فتحت الباب تفاجأت في الصالون الإضاءة كاملة، إذا حكمت فوراً بأن هناك شخصاً دخل في غيابك، لأنه لا يعقل ولا يصح فيما وهبك الله من إدراك أن تكون الأضواء قد اشتعلت بنفسها، فتبحث عن السبب، تضطرب اضطراباً شديداً، اضطرابك لأنك فهمت أن هناك أحداً دخل، هذا مبدأ السببية.

الآن نفسه هذا المبدأ الذي أودعه الله في داخلك إذا استخدمته تصل به إلى الله، الكون كله، إذا أنت لم تقبل إضاءة من غير أحد كبتس الرّر، كيف يُمكن أن تفهم كوناً بغير خالق؟ مستحيل، تخيل قاموساً من قواميس اللغة الإنكليزية السميكة جوالي ألفي صفحة، بخط صغير، كيف صار؟ قالوا: حدث انفجار بالمطبعة، المطبعة كلها حروف، صار الانفجار وبعد انتهائه وجدنا القاموس، تبعترت، اتصفت، ظهر القاموس، لا يقبلها العقل، هذا مكتوب، وراءه عقول وعلماء وعمل وكمبيوتر وتصنيف، فإذا جاء أحدهم وقال: أنا أرى الكون بدون خالق، هذا يُبشك في قوّته الإدراكية لا في دينه، أو أنه مُتفيع يريد أن يكون مُتقلّناً من كل قيد فيُنكر وجود الله حتى لا يتسعر بآلم الفطرة، وأن هناك حساباً سيعاقبه، أي لمصلحة يقول ذلك، أمّا لا يستطيع إنسان مُدرك حقيقة أن يفهم شيئاً بلا سبب، وإذا كان هناك شيء مُتقن يُصيح إيمانه بوجود السبب أكبر، هذا المبدأ الأول بالإدراك.

المبدأ الثاني الغائية، الغائية: أنت لا تقبل شيئاً بغير غاية، لماذا؟ أتينا لدخل وجدنا بابين، قال: لا تدخل من هنا، ادخل من هنا، البابان يُدخلانك إلى غرفة واحدة، لماذا منعنا؟ تبدأ تنظر، يا ترى هناك الأرض غير نظيفة فما أحبّ أن ندخل فأدخلنا من الباب الثاني، سوف تبحث عن الغاية، لا يستطيع الإنسان إلا أن يبحث عن غاية الشيء، لماذا؟ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)

[سورة المؤمنون]

هذا مبدأ الغائية، كل شيء له غاية.

عندما تطبخ المرأة الحليب أو تغلي الحليب على النار عندما يأتون بالحليب من عند الحلاب ليس حليب الغلب، فإذا وضعته على النار غالباً المرأة لا سيما اليوم مع وسائل التواصل والفيس بوك و الواتس أب تنسى الحليب، فتسعون بالمئة الغاز ينطفئ لوحده من الحليب، أي مهما حاولت وجلست أمامه في النتيجة يفور الحليب، كان يوجد اختراع عندما يشترونه من السوق، قيرص قحاري له فتحة في المنتصف، فإذا وضعته في قعر وعاء الحليب لا يفور الحليب، الآن إذا أتى به ووضعه خلّت مشكلته، لو تأخر عن الحليب يأتي فيجد الحليب كمت هو.

لكن يبقى هناك سؤال في الإدراك لماذا؟ ما الغاية؟ ما الذي حصل؟ طبعاً الذي حصل كما تعلمون جميعاً أن الفتحة الصغيرة في القرص جمعت الفقاعات وأخرجتها من مكان واحد في المنتصف فتقّبت القشدة التي تتكون أثناء القليان فهّم الحليب، ولم يعد يخرج خارج الوعاء، أت لو خلّت مشكلتك شيء يبقى العقل يُعشّش عن الغاية، فالله تعالى لقا خلقنا وخلق لنا الكون قال لك: هذه القوة الإدراكية التي أعطيتك إياها ستنبئك بغيرنا بأن وراء الكون خالقاً عظيماً، وستنبئك بغيرنا بأنك مخلوق لغاية، وسترجع إليّ لثأسب، فقط بمبادئ الفكر التي أعطانا الله إياها، فأعطاك الكون وأعطاك القوة الإدراكية العقل.



العقل لا يستطيع أن يفهم شيئاً ونقيضه

المبدأ الثالث هو مبدأ عدم التناقض، مبدأ عدم التناقض، فالعقل لا يستطيع أن يفهم شيئاً ونقيضه في لحظة واحدة، أي إذا قلت له: أين أنت؟ أنا بعيدون بالصوفية الآن، بعيدون بالصوفية معاً؟ لا، إمّا بعيدون أو بالصوفية، لا يصح أن تكون في مكانين بوقت واحد، فإذا وقعت الجريمة في مكان ما، واستطاع المتهّم بالجريمة أن يثبت أنه كان مسافراً عند وقوع الجريمة فوراً يصدر أمر بإخلاء سبيله، لأنه لم يكن موجوداً في المكان، فلا يُعقل أن يتفقد الجريمة وهو موجود في مكان آخر.

هذا مبدأ بسيط جداً اسمه عدم التناقض، العقل لا يستطيع أن يدرك أن هناك شيئاً يقع ولا يقع في وقت واحد، أو موجود وغير موجود في وقت واحد.

هذه المبادئ التي وهبنا الله إياها متوافقة مع الكون، فبالعقل والكون تستطيع أن تصل إلى الله، تستطيع أن تصل إلى أن هناك يوماً آخر، اليوم الآخر الذي تُسوّى فيه الحسابات، لأن المخلوقات يستحيل أن تُخلق عبثاً، أي إذا كنت جالساً في مسرحية، نحن لا نجلس في مسرحيات، لكن فرضاً مسرحية هادفة، جلست على المقاعد، مسرحية فيها سبتار، كُشف الستار، بدأت المسرحية، الفصل الأول، الفصل الثاني، أغلق الستار والناس جالسة، بعض الناس قالت: انتهت المسرحية، فجاوب آخر: لا، لم تنته، تأخرت فقط، ولكن بقي مشهد، لماذا يقول: ما يزال هناك مشهد؟ لأنه هو في إدراكه لا بد من نهاية، هكذا نحن في إدراكنا للقصص، لا بد من نهاية تُسوّى فيها الحسابات، لا بد في نهاية الأمر أن يتم التصفية، فالظالم يُحاسَب، والمظلوم يأخذ حقه، فيبقى جالساً فمتى انتهى العرض يُصقون ويذهبون.

فالإنسان بقوة الإدراكية التي أودعها الله فيه يقول: ربنا عز وجل العظيم الخالق المبدع يستحيل أنه خلق الكون عبثاً وأنا ومثنا وانتهى الأمر، ولو أننا إذا مثنا انتهينا كان الأمر سهلاً، ولكننا إذا مثنا بُعثنا، ونُسال بعدها عن كل شيء.

فلا بد أن يدرك العقل بأن هناك حساباً، لأن الكون لم يُخلق عبثاً، الكون هو المقيّم الأول، والمقيّم الثاني هو العقل الذي يُؤمن بالسببية والغائية وعدم التناقض، طبعاً المقيّمات التي متحنا الله إياها عندما قُلنا حمل الأمانة كثيرة، هذان الأولان منها، وإن شاء الله في اللقاءات القادمة نُفصّل القول في باقي تلك المقيّمات.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله.